بيت الراوي، ألفة ملحمية

في أي من روايـات غسـان كنفاني، لا يوجد أثر للاهتمام بتقديم أماكن المنفى التي تحتوي الفلسـطينيـين المنفيين والذين يسكنون خارج المخيمات، أي أولئك الذين ينتمون الى «البرجوازية الفلسطينية» بالمعنى الواسع للمصطلح، وربما يعود ذلك الى أن ابطال الروايات هم، غالباً، من المخيم، أو لأن انشغالات غسان، وموضوعاته، كان تنأى عن مثل هذا الاهتمام وتذهب عميقاً نحو الاماكن التي تكثّف المأساة وسديم المنافي: المخيمات، غير أن هذا الافتراض الذي ينسجم مع كل ما سبقت معالجته من أماكن، قد لا يصمد طويلاً أمام حضور أبطال ينتمون الى هذه الطبقة في روايتي «رجال في الشمس» و«عائد الى حيفا» دون حضور الأماكن التي يعيشون فيها، بينما يحضر الابطال الذين يسكنون المخيمات وبيوتها وتحضر أماكنهم، في الروايات نفسها، ففي رواية «رجال في الشمس» توفّرت لدى غسـان امكانية مجردة للولوج بنا الى المكان الذي يقطنه «أسعد» المناضل السياسي والمثقف الثوري، غير أن هذه الامكانية تظل امكانية مجردة لا تتحول الى امكانية فعلية في الرواية، ذلك لأن كل ما تقوله الرواية حول مكان سكنى أسعد وبيته، في المنفى، هو إشارة عابرة نعرف من خلالها أنه يسكن بيتاً قريباً من «جبل عمان»، وتجيء هذه الاشارة في سياق سرد ما تم بين أسعد والسائق أبو العبد، بشأن تكفّل الثاني بتهريب الاول ـ المطلوب للجهات الامنية والسياسية ـ الى العراق، عبر الصحراء الاردنية «فقد كانت السيارة الضخمة واقفة الى جانب البيت قرب جبل عمان حين تفاوض معه»[١٦٥].

ومرة أخرى في رواية «عائد الى حيفا» نلتقي بـ «سعيد س» وزوجته «صفية» اللذين ينتميان الى الطبقة البرجوازية، ونعرف أن الاسرة تقطن بيتاً في رام الله، وأنها تنقلت بين بيوت وأكواخ كثيرة، غير ان هذه البيوت والاكواخ، تظل غائبة، مثلما يغيب البيت الذي تقطنه الاسرة الآن، في رام الله، حيث لا نعرف شيئاً عنه وعن علاقة الاسرة به، وذلك لانشغال الرواية بموضوعها الرئيس. وهو ما يؤكد صحة الافتراض الذي قدمناه، مثلما يؤكده انشغال «رجال في الشمس» بالماضي السياسي لأسعد أكثر من انشغـالهـا بخلفيته الاجتماعية وانعكاسات المنفى عليه من حيث مكان سكناه، فقد كان هذا المناضل ضيفاً دائماً في السجون.

ومهما يكن من أمر، فإننا لا نسأل النص عما هو غائب منه، بقدر ما نسائل عناصره الحاضرة، وتبقى لهذا الغياب دلالته التي بيناها استناداً الى مسائلتنا لما هو حاضر في النصوص، وعلى هذا النحو نجد ان المكان الغائب، في الروايات الثلاث، قد مارس حضوره في الرواية الرابعة «أم سعد» وللأسباب نفسها التي أدت الى غيابه في تلك الروايات، فغسان، في «أم سعد» شديد الانشغال بالعلاقة بين «المثقف الثوري» و«الطبقة الباسلة، المسحوقة والفقيرة والمرمية في مخيمات البؤس»[١٦٦]. ولذا يحضر الراوي، غير المسمى، نموذجاً للأول، وتحضر «أم سعد» المسماة؛ نموذجاً للثانية، ويحضر المخيم وبيت أم سعد، بما ينطويان عليه من علاقات وتحولات دلالية، بيناها، ويحضر بيت الراوي؛ المثقف الثوري القاطن، في منفاه، في بيت خارج المخيم، بما ينطوي عليه من علاقات دالة على العلاقة التي تنشغل الرواية في التأمل فيها.

ليس ثمة إشارة واحدة في الرواية، يحضر من خلالها بيت الراوي، بمعزل عن حضور «أم سعد»؛ فمنـذ المشهد الاول الذي ينبثق مع الكلمة الاولى في الرواية، نكون بإزاء المحيط الخارجي للبيت، ونكون داخل البيت، مع التفاتات الراوي، ونحن نتوقع دخول أم سعد الى البيت في لحظة قادمة.